د. مبارك ربيع.
المغرب.

مدخل: جدلية النص والمنهج:

تتميز النصوص في الموروث الشفوي عامة، بطابع العفوية التي لا تتناقض مع انتظام أو نظام خاص، يتمثل في وزن أو إيقاع أو التزام فني جمالي بدرجة ما، وبخاصة أن هذه العفوية قد لا تكون أكثر من مظهرية أو افتراضية على الأصح عند ما يتعلق الأمر – وهو الغالب كذلك بتعدد المؤلفين (المجهولين)، وكذا الرواة والروايات، واختلاف العصور، مما يجعل تدخلا قصدياً أكيداً يحصل على مستويات فنية ومضمونية عديدة، يخرج عن طبيعة العفوية الأولية، إلى مستوى ما من الصنعة والنظامية الحرفية، إذا صح التعبير.

بيد أن هذا التوصيف الذي يعتبر من صميم الموروث الشفوي، باعتبار أن سواه من غير الشفوي، يقدم تاماً ومكتملا بقصدية، هو ما يدعم خصوصيته التي تجعل من المتعذر تصور نصوصه في مجملها قابلة بالكامل، على نحو آلي وبكل حرفية، لمناهج بعدية بطبيعتها؛ إذ مقتضي الحال أن المنهجية المطبقة، وإن بدت كالمستقلة بذاتها، هي في الأصل تابعة ومستخلصة إلى حد كبير، من النصوص المستقرأة في بنياتها وتشكلاتها، وليس العكس؛ مما يصح معه القول بأن النص يحمل معه مواصفات منهجيته، أو أنه على الأقل، يوحي بالمنهجية الملائمة لدراسته وتحليله.

وبقدر ما يفرض هذا التصور اجتهاداً وتفاوتاً في اختيار المناهج تبعاً لطبيعة واختلاف النصوص، فإنه يفتح الباب لجدوى التعددية المنهجية في دراستها، مقارنة مع الاقتصار على منهج واحد برؤية واحدة؛ وهو مما تستند إليه هذه المحاولة، في التركيز على تحليل مضمون النص السردي الشفوي، مقارنة مع السرد الأدبي في تجربة خاصة من جهة، ومع معطيات ميدانية من جهة أخرى.

1- تعريف القيم:

يقصد بالقيم ما يرتبط بالشئ من حكم أو صفة أو ميل، يجعله مرغوباً فيه أو مرغوباً عنه؛ ومن الواضح أن هذا الموقف إزاء الموضوع واقع مركب، يرجع بعضه إلى الذات، وبعضه الآخر إلى الموضوع، على نحو متداخل كلياً أو جزئياً، كما أنه يتضمن من مكوناته ما يعود إلى المعرفة، وإلى الخبرة والوجدان جميعاً، بتفاعل بين هذه المكونات.

ومن ناحية أخرى، فإن "الرغبة في " و "الرغبة عن"، تفيدان ما هو متضمن في القيم الاجتماعية من سلب وإيجاب، و هي في ذلك كالقيم الاقتصادية في البورصة وما يعاريها في سوق المال من تصاعد وتنازل.

وما يجب الانتباه إليه منذ البدء، هو أن القيم لا تقوم إلا بموضوعها، فهي ليست مجردة فكرة قائمة في الذهن، ومن ثم، ترتبط بمعايير تضفي عليها التجسيد العملي، ويمكن عن طريقها القياس والاحتكام؛ مما لا ضرورة للتفصيل في تحليله هنا، وإنما نعتمد عليه لنؤكد ظاهرة ارتباط القيمة بموضوعها، لدرجة أن الموضوع ذاته يكتسي طابع القيمة إيجاباً أو سلباً.

وفي هذه المحاولة التحليلية لموضوع " التحول و القيم: بين الموروث الشفوي وتجربة السرد الأدبي"، سأعتمد على معطيات ميدانية، أنجزت حول عينة من القيم الاجتماعية التربوية في منطقة الشاوية بالمغرب، وهي منطقة زراعية قروية مرت وتمر بتحولات عميقة منذ بداية القرن الماضي؛ وقد أنجزتْ بهذا الصدد مجموعة من الدراسات تحت إشرافي، عرضت بعض نتائجها منشورة، وسأكتفي هنا بالإشارة إلى مرجعها. [1]

2 – تحول المجتمع والقيم: معطيات ميدانية:

تؤشر المعطيات الميدانية إلى التحول المحسوس و الدال، الذي يمر به المجتمع القروي في انتقاله من: "البداوة" إلى " التحضر"، بالمعنى الخفيف للمدلولين، أي بما يعني دخول العالم القروي في فضاء الحاضرة أو المجتمع الحضري؛ و لا داعي للحديث هنا عن الأسباب؛ كما أن المقصود لا يعني بتاتاً، مجرد اندماج الوافدة القروية عن طريق الهجرة المعهودة، في مستجدات ظروف المدينة ومقتضيات التكيف، بل المقصود بالذات في هذا التحول باتجاه المجتمع الحضري، ظاهرة النمو الديموغرافي العمراني، التي تجعل العديد من التجمعات التي لم تكن حتى منتصف القرن العشرين، سوى تجمعات أو تفرقات قروية؛ تتسع وتتشكل بها مظاهر الحياة الحضرية، لتصبح مدناً صغيرة أو "مراكز حضرية"؛ وهذا التحول هو المقصود الذي جعلنا نتوجه إلى دراسة ما واكبه أو لم يواكبه، إيجاباً وسلباً، من

تحول في القيم؛ وخاصة منها تلك المتسمة ببعض القوة والعمق في المجتمع القروي.

وحتى ترتسم لدينا صورة عن عمق وشساعة التحول الحاصل في هذا الاتجاه، في مظهره المادي مبدئياً، نورد بعض الأرقام، وهي تعبر عن هذا الانتقال بكل قوة، إذ إن العالم القروي كان يشكل 83% من الساكنة المغربية سنة 1952؛ ليصبح ممثلا فقط لـــ 44 , 56 % سنة 1984؛ وأقل من ذلك في نهاية القرن الماضي و مطلع الألفية الجديدة. (2)

ومن جملة القيم التي اعتبرت لتكون محك التحول القيمي، نظراً لمحوريتها وعراقتها في المجتمع القروي، تأتي في المقدمة تلك التبلورة حول موضوع "مكانة المعلم والفقيه"؛ لما لكل من هاتين الشخصيتين في ذاتها، من دلالة مباشرة على التحول، ولما تمثله أو ترمز إليه كل منهما، من معان ودلالات في سلم التحول أو من منظوره.

ويتضح من المقارنة بين الأوساط الثلاثة (قروي ـــ حضري قروي ـــ حضري) أن مكانة المعلم متقاربة ما بين الأوساط الثلاثة (قروي، مركزي حضري، وسط حضري) وهي تتراوح ما بيـــن 27,50 % و 46 , 32 % ؛ إلا أننا عندما نتقصد مكانة الفقيه بالذات، و بخاصة عند المقارنة بين الطرفين الأقصيين، وهما القروي من جهة، والحضري من جهة ثانية؛ نجد النسب فارقة دالة، إذ إن التعبير عن مكانة الفقيه في المجتمع القروي، يسجل نسبة 82 %، مقابل 12 % فقط لدى المجتمع الحضري ؛ مما يعني أن هذه القيمة مرت و تمر بتحول كبير و دال.

ومن جهة أخرى فإن التعبير عن"مكانة المدرسة" يسجل نسبة في اتجاه معكوس لما سبق بكلا الوسطين، وبذلك يؤكد التوجه نفسه؛ إذ أنه يبلغ أعلى نسبته ودلالته في المجتمع الحضري، وهي 88,40 %، وذلك مقابل 36 % فقط لدى المجتمع القروي؛ وهو المنحى نفسه الذي تمثل به علاقة الأبوين بالمعلم، إذ أنها تمثل 35 % للمركز الحضري والوسط الحضري؛ مقابل **7 %** فقط للمجتمع القروي. (3)

إن هذه النتائج وغيرها من المتقاربة والمتشابهة، إنما تعرض هنا للدلالة على المقصود بها في هذا المقام، دون الوقوف على مدى إيجابيتها أو عدمه، من المنظور التربوي، سواء بالنسبة للوسطين المتطرفين أو للثلاثة جميعاً.

وتوجد قضايا أخرى مرتبطة بقيم تهم مستقبل الأبناء، واستثمار أوقات الطفل خارج الزمن المدرسي؛ ويبدو التفاوت فيها قائماً باتجاه تأكيد فرضية التحول المجتمعي والقيمي بالتوازي والتفاعل، مما يتضح معه أننا كلما تقدمنا باتجاه مجتمع حضري، كلما تأكد التحول في القيم لصالح الحضري، بغض النظر عن أي حكم قيمة أو موقف إصلاحي؛ وعلى سبيل المثال فإن استثمار أوقات الطفل

خارج المدرسة، ولو أنه يبدو إيجابياً من الناحية المبدئية، وبالتالي يبدو فيه المجتمع القروي متقدماً في هذه القيمة أو القيم المرتبطة بها، فإن الواقع يظهر أن الأمر من الناحية العملية ليس كذلك بالضرورة، وكل ما يعنيه ذلك، أن المتمدرس في الوسط القروي، يجد نفسه وهو خارج المدرسة، يؤدي وظائف حيوية من طبيعة عالم القرية، لكنها لا تنمي شخصيته وتغنيها على النحو المطلوب تربوياً، لأنها عفوية روتينية بل وعشوائية إلى حد كبير؛ وهذا ما يتأكد من قيمة "الحرية" التي يتمتع بها الطفل خارج المدرسة بالمقارنة ما بين الوسطين القروي والحضري؛ أو في الموقف من التشدد التربوي بين الوسطين نفسيهما.

من هنا يبدو أن العملية البيداغوجية، المرتبطة بالوعي والتخطيط التربويين، هي الكفيلة بالترجمة العملية، لدلالة التعبير عن قيمة اجتماعية معينة، إلى مردود إيجابي والعكس.

3 – نماذج قيمية في الموروث الشفوي:

وبالانتقال إلى الموروث الشفوي (الشعبي)، على مستوى عينات من الحكاية والحكمة والنكتة في الموروث الشعبي؛ نلمس قيماً جوهرية ضمنية في المجتمع القروي.

أ – الحكاية (الطويلة):

في مجال الحكاية الطويلة، نقف عند سردية "هاينة"، وهي من أشهر الحكايات الشعبية، تروى مع تحويرات وإضافات بسيطة من منطقة إلى أخرى؛ إلا أنها تظل تمثل حكاية الفتاة القروية الجميلة، التي تقوم بالوظائف المطلوبة منها، فتزاول الاحتطاب مثل غيرها، لكن الظروف " الخفية" أو " قدر الراوي"، يجعلها تتأخر عن رفقتها أثناء هذه العملية، وحينئذ يقترب الظلام، وتتعثر في لَـــمٍّ ما احتطبت، ليرتسم أمامها الغول في صفة ما، يعرض عليها العون مقابل أنها عقب عودتها، تلبي نداءه فيما يطلب منها، فترضخ للشرط في ظروفها تلك، إلا أنها تحاول أن تخلف الوعد فيما بعد، ولا تستجيب لنداءات الغول المتوالية؛ وهي عقب كل نداء منه يطلب أن تمده بعود حطب[4]، تقترح أن تقوم بذلك إحدى قريباتها، فيكون رده الغاضب تشنيعاً وشتماً لتلك القريبة (على نحو يتناغم لغوياً مع اسم تلك القريبة) [5].

وفي نهاية الأمر، تمسخ هاينة الجميلة "كلبة" تنبح، ويرمى بها بين حظيرة كلاب السلطان؛ ويظل ابن عمها، وهو العليم بحال هاينة، يناجيها كل مساء مستفسراً عن حالها:

– وا هاينة آش عشاك الليلة؟

فتصف له الحال السيئ في المأكل و المنام:

– عشايا نخالة ورقادي جنب النوالة [6]

أو : عشايا منادب ورقادي بين المناصب [7]

أو: عشايا عذاب ورقادي بين الكلاب.

وفي كل مرة من هذه الحالات، يتأسى قلبه و يمتلئ غماً وكمداً:

– افرحْ آ قلبي افرحْ.

إلى أن يكتشف أحد خدم القصر السلطاني صدفة هذه المناجاة، فيشير بتغيير وضعية الكلبة والإحسان إليها، وهذا ما يحصل بالفعل؛ وحين يناجيها ابن عمها كالمعتاد يكون جوابها مخالفاً للمألوف:

– عشايا فتات [8] ورقادي بين البنات.

فيتسرى قلب الفتى ابن العم :

– افرحْ آ قلبي افرحْ...

وينتهي الأمر إلى عزم الأمير على الزواج بـــ"هاينة" على حالتها (الكلبة) رغم معارضة والديه، إلا أنه يمضي لغايته مستعيناً بقوى سحرية مضادة؛ و حين يخلو بعروسه (الكلبة) في ليلة الدخلة، يستعين بالقوى السحرية، ويأمرها بأن تخرج من جلد الكلبة، وهوما يحصل؛ ليجد أمامه زوجه الحقيقية المطلوبة، هاينة الفتاة الفائقة الحسن والبهاء ...

وهناك تتمة ذات وجه آخر لبقية الحكاية، تظهر مصير المنافس الحسود ...

تسجل الحكاية بعض القيم القروية كالتالي:

– **هيمنة القضاء القدر الخفي**، و هو يلعب بمصائر الأفراد، متمثلا في تدخل القوى السحرية والمخلوقات الغيبية.

– **وفاء ذي القربى**، ويتمثل في المناجاة المؤثرة ما بين هاينة وابن عمها، رغم الحواجز والعوائق؛ والملاحظ أن صورة هذا الوفاء ترتسم مخالفة للمألوف في الحكي الشعبي، حيث من المعتاد أن يكافأ ابن العم بالزواج بابنة عمه؛ فهذه القيمة هنا تحضر مجردة عن كل مكافأة، لأن مصير هاينة سيكون ارتباطاً مع الأمير الذي يمثل وفاء آخر، أو صورة منه على الأصح.

– **النجدة و تقديم المساعدة** لمن هو في حاجة إليها أو في أزمة من أمره، وتتمثل في خادم القصر والأمير، وهما يعملان على فك إسار هاينة.

– **انتصار الخير وعاقبة الشر**، وهي متمثلة في النهاية السعيدة من جهة، وفيما تضيفه الحكاية من تتمة لعاقبة الحسد والحسود.

ب – نموذج الحكاية القصيرة:

* حكاية بلارج والقنفد:

ويعرض لنا نموذج الحكاية القصيرة، في "ضيافة بلارج" (اللقلق)، صورة أخرى لسرد القيم الاجتماعية في الموروث الشعبي، إذ تعرض أحداثها باختصار، وبعبارات مباشرة، بعيدة عن شعرية هاينة؛ وتذكر أن بلارج والقنفد تصادقا، واستدعى كل منهما الآخر ضيفاً لديه، وكان اللقلق البادئ بذلك، فرحب بضيفه القنفد بكل ما يلزم عبارات الترحاب؛ وحين وصل وقت الطعام، قدم له ذلك على نحو من حساء في آنية على شكل قدر عميقة مستدقة الفوهة، فكان المضيف (اللقلق) يغمس منقاره الطويل في فوهة القدر، فيصيب ما يشاء بكل راحة ويسر، عكس الضيف (القنفد) الذي يتعذر عليه ذلك تعذراً كلياً، مما حرمه قطعياً من إصابة أي شئ؛ ومقابل ذلك فإن القنفد في ضيافته لصاحبه اللقلق، سيعرض الطعام على نحو من حساء أيضاً، لكن على آنية بدون عمق مستوية السطح أو تكاد، مما يجعله يلعق الطعام براحة تامة، بينما يظل ضيفه اللقلق، يضرب برأس منقاره الطويل سطح الآنية دون جدوى ...

بعض القيم المعروضة:

– **الكرم و انتقاد مقابله البخل:** قيمتان متضمنتان، وهما من القيم الأساسية في المجتمع القروي، ولاسيما إكرام الضيف.

– **حسن الرفقة أو مرافقة الشبيه لشبيهه:** وتظهر في عدم التعادل ولا التلاؤم في رفقة كل من القنفد واللقلق.

* **حكاية الصياد و القنفد:**

وتعرض حكاية "الصياد والقنفد" شيئاً مشابهاً، وهي تظهر الصياد الذي يتتبع أثر القنفد حتى يكتشف مخبأه في ثنايا سدرة شائكة مغيال، فتتلمس أصابعه الطريق للإمساك بغريمه القنفد من بين جذوع السدرة وفروعها؛ وفي كل مرة يمسك الصياد بساق القنفد، يتشبث هذا بموقعه في واقع الأمر، إلا أنه في الظاهر يتضاحك مستهزئاً بيد الصياد التي إنما تمسك بفرع السدرة ولا تصل إلى ساقه؛ ومن ثم يشجع الصياد على أن يظل ممسكاً بما في يده، لأن ذلك لا يكلفه شيئاً ويسليه؛ وعندما يمسك الصياد بفرع السدرة عن حق ويبدأ في جذبه، يشرع القنفد في الصراخ من شدة الألم؛ وهكذا حتى يتعب الصياد وينصرف يائساً ...

بعض القيم المعراوضة:

- **حسن الدفاع عن النفس:** ويتمثل في ضرورة استغلال الطبيعة وظروفها للاحتماء والاستقواء.

- **قوة الذكاء وحسم التحايل:** بقصد النجاة أو الانتصار؛ ويمثل القنفذ وكافة المخلوقات الضعيفة والمستظرفة في شكلها، على أنها أذكى من الأقوى والأكبر منها.

*** حكاية السلحفاة والحصان:**

وتقدم لنا حكاية "السلحفاة والحصان" نحواً آخر من القيم، إذ تمثل السلحفاة زوجة غاضبة من قرينها الغيلم، الذي ما يفتأ يرسل إليها مختلف الحيوانات الصديقة لعرض التصالح والعودة إلى العشرة، أو (بيت الطاعة) إن صح التعبير؛ بيد أن كل ذلك يظل بدون جدوى، وتظل السلحفاة حصينة محمية في قبو صخرة منيعة؛ إلى أن يأتي دور الحصان في الوساطة فيقبل بجلاله و"سناحه" الموشى بالفضة والذهب، تصلصل جلاجله وقلاقله، فيطرق كالآخرين طرقة قوية، تتساءل معها في كبريائها السلحفاة بعبارتها المألوفة :

- شكون دق داري، ونا حافراها بشفاري، وهدير الماء والظلمة عليا ...

فيجيبها بكل قوة وتحد، صوت الحصان المجلجل :

- لجامي حديد، وحزامي حديد، ولا ماخرجت نرجّعْ باباك دقيق ...

فتخرج صاغرة لمنطق القوة والتهديد ...

بعض القيم المعروضة من خلال موضوعاتها:

- **الكبرياء الكاذبة** من قبل السلحفاة.

- **استعمال الشدة والقوة أحق** مع من لا ينفع معه لين وعطف.

ج – النكتة و الحكمة:

وتعرض لنا النكتة والحكمة نماذج قيم مشابهة ومكملة للمنظومة.

ومنها في باب الحكمة و النصيحة مقولة: "**العروبي** [9] **و الفار لاتوريه باب الدار**"

وتعرض النكتة مثيل ذلك في "**ضيافة العروبي والمديني**": إذ تصور الرجل القروي يستضيف الحضري، فيحضر له قصعة كسكس كبيرة (أو طاجين) مقببة باللحم والخضر؛ مما يفوق حاجة كل محتاج إلى الأكل؛ بينما عند ضيافة المديني للقروي، يسرف هذا الأخير (المضيف) في تقديم أطباق صغيرة من المقبلات، وكلها خالية من اللحم، وهو في كل مرة يذكر الفوائد الصحية لما يقدم؛

والضيف يحتمل ذلك على مضض وينتظر، إلى أن وصلت سلطة الجزر" خيزّو"، فيمعن المضيف في ذكر فوائد الجزر من حيث أنه يقوي البصر ويعالج أمراض العيون ... و...و ... فيقاطعه القروي نافراً :

– أعطني اللحم والله يرزقني باباي العمي ...

بعض القيم المعروضة من خلال موضوعاتها:

- **الاحتفاظ بسر الدار عن المتطفل**، فلا يدخلها إلا المرغوب فيه.

- **المعاملة بالمثل** في مجال الضيافة والكرم.

4 – نماذج من تجربة السردالأدبي:

بغض النظر عن غرضية الكاتب والمتلقي، من خلال التعامل مع المعطى السردي كل من جانبه، فإن إعادة النظر في بعض ما كتبته مما يتصل بموضوع التحول القيمي والمجتمعي، يجعلني أقف عند نماذج من هذه الكتابة في بعض تقاطعاتها مع عالم القرية، فتعرض بعض القيم كالتالي:

- **قدسية الزرع والحبوب عامة**: حيث نجد الشخصية القروية وقد فرضت عليها الهجرة وضرورة التكيف مع الحياة الحضرية، تختار الأقرب إلى طبيعتها- إذا واتتها فرصة الاختيار- فيميل الحمدوني إلى الاتجار في الحبوب.

- **التطير والتفاؤل**: إذ يتضمن تفكير الشخصية أحكاماً موروثة ومسبقة، على طيور بعينها، وعلى مشاهد في الأحلام.[10]

- **الأرض تمثل كقيمة في ذاتها**: و لذلك لا يقبل البديل عنها، و لو كان أغلى من ثمنها أضعاف المرات، نقداً أو عيناً (أرضاً أفضل)؛ و حيث تقول إحدى الشخصيات عن كل أرض بديل "إنها صلدة... لا ترد ولا تردد صدى خطواتنا ..."[11]

- **وعي الجماعة**: وهي القيمة الأكبر في العالم القروي، لا يستطيع المهاجرون إلى المدينة الخروج من دائرتها، لذلك يشكلون جماعات فيما بينهم يلتئمون في نطاقها، بعد السراح من أشغالهم اليومية أو الأسبوعية.[12]

- **الإحسان والمساعدة**: تبدو هذه القيمة في التحول الذي يقر به المنصوري (وهو ثري العاصمة ورفيع المكانة المحسن) لصديقه وضيفة القروي، عندما يقارن بين ما كانت عليه الصدقة والإحسان في الماضي والمعهود، حيث كان التصدق بأقل شيء مقبولا، أما الآن فالمتسولون الحقيقيون، يقصدونه للتوسط في اكتساب مكانة أو وظيفة عليا في الدولة.[13]

- **القضاء و القدر**: ويمثل في شخصية الخادمة القرعاء التي تنحصر كل أمانيها في استنبات شعرها المفقود؛ و كل حلمها في أن تزهو به يوماً، و تتعالى بجماله عن يؤس حياتها، في خدمة ربة المنزل المتعسفة، مدندة بأهزوجتها:

شعرك يا زين طوله قامه

ريحة الورد والقرنفل و الخزامه
شعرك يا زين ...[14]

4 – التحول و التحول المواكب:

لاشك في أن جملة النماذج التي وقفنا عليها، في الدراسة الميدانية في نوعية تحولها، وكذا تلك التي تتبعنا بعضها في السرد الشعبي بمختلف نماذجه، ثم أخيراً، ما تمثله بعض النماذج في السرد الروائي في تجربة خاصة، هي تجربة المؤلف؛ كل ذلك يؤشر على التحول القيمي المواكب للتحول المجتمعي، في طريقه من البداوة إلى التحضر، بطريقة ما وبعيداً عن أي حكم مسبق؛ وإذا استحضرنا بعض تلك القيم من قبيل: الكرم، الارتباط بالأرض، العهد، الجماعة والفرد، وما شابه ذلك، فسنجدها حتماً من الأكثر قابلية وتعرضاً للتحول: فحياة الأجرة المحددة و السكن المحدود الفضاء، مع ما يقابله من قيمة مادية، وكذا الإغراء الذي يقدم أثماناً للأراضي الزراعية مقابل تحويلها إلى تجزئات سكنية، يضاف إلى إغراء الهجرة إلى المدينة؛ كل ذلك من شأنه أن يحيل إلى مفاهيم وتصورات جديدة، في تواؤم مع موضوعات هذه القيم؛ ومن شأنه بالتالي أن ينعكس على التعامل مع الأرض كمجرد بضاعة خاضعة للعرض والطلب، أي أن التعامل معها باعتبارها قيمة تجارية، أكثر منها قيمة وجدانية.

ولا بد في ظروفنا العامة الحالية، أن تدخل في الاعتبار معطيات أخرى مستجدة، منها ظاهرة الهجرة خارج الوطن، والجنسية المزدوجة للمواطن، والجنسبة الوطنية للأجنبي، والزواج المختلط؛ وكل ذلك في إطار التثاقف العالمي، وحتى العولمي الجديد، المشبع بقيم الديموقراطية، والتعددية السياسية والثقافية، وبالمساواة بين الجنسين، وبسائر منظومة حقوق الإنسان؛ ليؤشر ذلك كله، على التوجه في تحول القيم في مجتمعاتنا، وهي في طريقها من "البداوة" أو الطابع القروي إلى التحضر؛ ومن المحلية إلى العالمية والكونية، التي تتسم بها التفاعلات القوية في عالم اليوم والغد.

ويبدو من الطبيعي أن تثار الأسئلة حول بعض القيم الرئيسية، أمام هذه التحولات العميقة الفسيحة في الآن نفسه، و منها على سبيل المثال: القيم الوطنية.

لقد طرح هذا السؤال على أكثر من مستوى في السنوات الأخيرة، أمام ما يشاهد من مواقف ومظاهر يمكن النظر إليها من منظور الوطنية، لتبدو على نحو مناقض من الغرابة.

وقد سبق لي أن عالجت هذا الموضوع في أكاديمية المملكة المغربية، بالكثير من الشمول والتفصيل، أستعير منه هنا فقط، ذلك الاستهلال التي استعرته حرفياً من رواية لكاتب أمريكي يقول فيها " ولا تحدثني عن الكفاح من أجل إنقاذ بلادي، لقد كافحت من أجلها طويلا والآن سأكافح

قليلا لإنقاذ نفسي. إن بلادي لم تعد في خطر ولكنني أنا في خطر؛ من الآن فصاعداً لن أفكر إلا في نفسي" (15).

لقد عنيت بهذا الاستهلال أن أفاجئ الفكر والوعي باستشهاد استفزازي ومباشر على هذا النحو؛ وذلك بقصد عدم استسهال الحكم على الأجيال التي قد تبدو لنا من منظور معين، وكأنها أقل وطنية، أو عديمة الوطنية، أو معارضة لقيمها؛ و بهذا الخصوص أطرح الملاحظات التالية:

- إن الأجيال التي قد يلاحظ عليها تحول جوهري في منظومة القيم، على نحو سلبي لا يبدو متلائماً مع المألوف والمنشود، هي أجيال نشأت في ظل نظمنا التربوية، وبالتالي فلسنا أبرياء أو خارج دائرة الاتهام، إذا ما كان هناك مجال للاتهام؛ ولا عذر لنا في الغفلة عن الواجب، أو في رمي المستعمر و الأجنبي و المتواطئ، بما هو مسؤليتنا ونحن في سلطة الحاكم، والمربي، والوالد.

- الوطنية كما عرفت في مرحلة النضال ضد المستعمر و في بدايات الاستقلال، ليست بالضرورة متطابقة مع الأسس والأهداف التي يمكن أن تتقوم بها الوطنية اليوم وغداً، وبخاصة فيما دون الطرفين الأقصيين لكل قيمة أو منظومة قيم.

- لابد للإصلاح الذي يجب، من أن يكون منطبعاً بطابع التحول والتقدم، وهو في العمق استراتيجيا تربوية شاملة، تعيد الاعتبار لدور الأسرة في هذا المجال، بل تعيد هذا الدور التربوي أيضاً، لمختلف المؤسسات التي أصبحت مقتصرة على الجانب التعليمي فحسب؛ و هذا كله في ضوء مراعاة كاملة للجانب البيداغوجي في العملية؛ أي أنها استرتيجيا قائمة على طرق وتقنيات حديثة ومستحدثة من جهة، وعلى ثقافة العصر والتفتح على المستقبل من جهة ثانية.

هـــوامـــش :

1 – مبارك ربيع، القيم الاجتماعية التربوية و التحول الاجتماعي في منطقة الشاوية، ضمن " مدخل إلى تاريخ وفنون الشاوية"، وزارة الثقافة، 1989

2 – نفسه ص 19 ــ 24

3 – نفسه

4 – (الفرّكان) في الحكاية وهو ما يحرك به الجمر

5 – مثلا يدعو على العمة بالعمى، و الأخت بالخواء، و الخالة بالخلاء...

6 – الكوخ القروي التقليدي المصنوع من القصب و القش

7 – الأثاثي

8 – أكل طيب مستساغ

9 – القروي

10– مبارك ربيع، الريح الشتوية (رواية)، ص138، طبعة جديدة 1997

11 – نفسه، ص48، 63

12 – نفسه، ص 26 ــ 32

13 – مبارك ربيع، الطيبون (رواية)، ص 49، طبعة جديدة، 1988

14 – مبارك ربيع، سيدنا قدر، قصص، (قصة سيدنا قدر) طبعة ثانية، الرباط 1980

15 – مبارك ربيع، سبل ترسيخ الهوية الوطنية، انظر: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الوطن والمواطنة وآفاق التنمية البشرية، الرباط 2007. (والقولة مأخوذة من جيمس دورت، العدو، رواية، ترجمة صنع الله إبراهيم، ص 6، الفنك، الرباط 1993).